

الفصل السادس

تحت الحصار

«... لو سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً؛ لأنك أنت معي»

- مزامير داود 23

كنت أقلب ببصري أجواء السماء وأنا جالس في الطائرة المروحية التابعة لشركة بلاك ووتر، وبدت الأرض من تحتي كأنها غشاوة متموجة داكنة من رسم متداخل الألوان، وكانت قدمي تضغطان بشدة على جانبي المروحية حيث جلست بمحاذاة المدخل المفتوح في الطائرة المروحية، وتمنيت لو كانت الأحزمة التي تربطني بأرضية الطائرة من النوع الذي يربط الجسم كاملاً. وحين نظرت إلى الأسفل، رأيت مدينة أثرية تحت الحصار، تبرز منها الأبراج والقلاع المحصنة ذات الشرفات. ويبدأ العالم الحديث في هذه المدينة من النقطة التي يلتف عندها السديم البني حول المباني المربعة التي تتألف منها بقية المدينة.

وحين بدأ الطيار بالانخفاض كي يتمكن من النظر إلى المدينة عن قرب، برزت أمامنا المباني الضخمة التي شيدت في عهد صدام حسين تتخلل الفضاء المغبر، شامخة فوق السديم البني الذي يلف المنازل والمتاجر ذات المنظر الرتيب الممل. وفي حين كان الهواء يبدو لطيفاً والسماء هادئة من ارتفاع ألف قدم في السماء، إلا أن مجرد الهبوط من هذا الارتفاع يدخلنا في دائرة حرب المدن في القرن الحادي والعشرين. لقد حوّلت قوات الاحتلال مباني صدام حسين ذات التصميم المعماري الباذخ إلى متاهة قبيحة مرقعة بالمنازل المحاطة بأكياس الرمال، والأبنية البيض المقطورة، والجدران المضلعة، والتلال الترابية، والدبابات، والسيارات ذات الدفع الرباعي، والعربات العسكرية. وبالطيران فوق المناطق السكنية يظهر المشهد العام للسطوح بجلاء حياة المشاة وسط ساحة

الحرب. وحين يمت بصري فوق سطوح المنازل والشوارع، ظهرت أمامي أنماط جديدة من الحياة. ويمكنني في الحال رؤية الازدحام المروري، والتحركات العسكرية، والأفراد العاديين وهم يسيرون في الحقول والأزقة. ويحرص الطيارون على عدم الطيران على ارتفاع يقل عن ثلاثين متراً - لأنها أفضل مسافة لرؤية المدينة عن قرب وحسب، بل لأن الطيران المنخفض يقلل من الوقت الذي يحتاجه أفراد المقاومة للتصويب وإطلاق نيران أسلحة آربي جي عليهم. كما أنهم يطيرون بأسلوب متعرج إلى الأمام والخلف تحسباً من قيام أحد بإطلاق النار عليهم. ويقول الطيار ستيف: «إننا لا نتعرض للإصابة كثيراً ولكننا ندخل في أوضاع جنونية». ويقوم ستيف برسم صورة ساخرة لطائر باللون الأبيض على نافذة مروحيته في كل مرة يتعرضون فيها للإصابة بالنيران، كما أن البلاستيك اللاصق يغطي ثلاثة شقوق عميقة في جسم الطائرة من أثر الشظايا.

وعند الوصول إلى نقطة محددة، يقوم قائد الطائرة المروحية بتوجيه الطائرة من الأرض الصحراوية القاحلة نحو السماء الزرقاء، ضاعطاً بجسمي إلى أرضية الطائرة الملمعة المصنوعة من الألمنيوم. ومع التفاف الطائرة، كان كل ما يمكنني رؤيته هو السماء والشمس، ثم شعرت بانعدام الوزن وتلفظت ببعض العبارات غير المفهومة التي تشبه الدعاء، وانتابني شعور بالحاجة إلى التقيؤ.

ثم تحولت الطائرة الصغيرة في تسارع نحو الأسفل باتجاه المياه الموحلة المكدرة لنهر دجلة. فاستسلمت للقدر ورحت أفكر في النهاية الحزينة لآخر نفس سأستشقه من تلك السوائل المنتنة، غير أن الطيارين الماهرين قاما في اللحظة الأخيرة بتعديل مسار الطائرة. وحين فتحت عيني، رأيت أننا نطير بمحاذاة النهر على ارتفاع عدة أقدام فوق الشريان البني المتعرج الموحد. وجاء صوت الطيار عبر سماعة الأذن طالباً مني أن أراقب الماء، فهي المكان الذي يمكنهم أن يشاهدوا منه جثث القتلى التي تطوف فوق القناة ذات المياه العكرة. ويبدو أن الليلة الفائتة لم تشهد الكثير من الحركة؛ إذا لا وجود للجثث اليوم. وبنبرة واضحة متيقنة أكثر من واعية على طريقة الدليل السياحي، أشار الطياران إلى الجهات التي تأتي منها قذائف المدفعية التي تضرب المنطقة الخضراء. ثم أشارا إلى

الجانب الآخر كي أنظر إلى المكان الذي وقع فيه الهجوم الانتحاري الذي وقع بالأمس. ثم انتقلت الطائرة إلى التفاف آخر مثير للاستفراغ، وتوجهنا بسرعة كبيرة بمحاذاة الشارع الرئيس باتجاه المنطقة الخضراء.

حلقتنا فوق ساحة العروض العسكرية التي يتخللها نصب ليد تشير بعلامة النصر. وهي نصب كبير ليدين منحوتتين فوق تمثال لصدام حسين وهو يحمل سيفين يشكلمان قوساً صنع من حديد أسلحة العراقيين الذين قضوا نحبهم في الحرب العراقية الإيرانية. ويشتهر الطيارون الذين يعملون في شركة بلاك ووتر بالطيران تحت هذين السيفين، ولكنهما في هذه المرة، ورأفة بي، تمالكا نفسيهما وأحجما عن فعل تلك المناورة. وبعد ميلان الطائرة إلى الأعلى ميلاناً يلوي الأمعاء، قطعنا الخط الذي يفصل بين المنطقة الخضراء عن العالم الخارجي. وفي الوقت الذي توجهنا فيه إلى البوابة رقم 12، انخفضت الطائرة المروحية قريباً من سطوح المنازل لدرجة أنني استطعت رؤية الذعر والخوف المرتسم على وجه رجل كان يغسل ملابسه حين نظر إلى الأعلى ليرى طائرة مروحية تتجه صوبه. ومرة أخرى، امتحن الطياران قدرة معدتي على التحمل؛ ثم دخلنا بين الجدران الإسمنتية المسلحة المحيطة بالقصر. وهبطت الطائرة بانسياب سلس، وانتهت الرحلة. وشعرت بالراحة لدى رؤيتي الجدران الإسمنتية المسلحة المقاومة لقذائف المدفعية.

يقيم طيارو بلاك ووتر قريباً من مهبط الطائرات القريب من القصر الرئاسي في المنطقة الخضراء. ومهبط الطائرات هو منطقة واسعة فارغة معبدة تحيط بها الجدران المسلحة، وتقع في الساحة الرئيسة للقصر - وهي هدف مفضل للقصف المدفعي. وتشبه المنطقة حديقة فظيعة للنحت الحديث.

وفي داخل المستودع الذي يؤوي ثلاث طائرات مروحية تشبه في شكلها دمعة العين، كانت موسيقا الريف الأمريكي المنبعثة من أحد المسجلات تتردد بصوت مرتفع. وكانت طائرتان مروحيتان أخريان مدهونتان حديثاً باللونين الرمادي والأسود رابضتين في المستودع، في حين كانت الثالثة تخضع لفحص ميكانيكي بعد أن أخرج منها المحرك ولم يبق منها سوى الهيكل. دخلت طائرة هيوز 500 الصغيرة (وتتجهها في الوقت الحالي

شركة بوينغ باسم إم دي 550) الخدمة عام 1960، ثم سجلت هذه الطائرة المروحية الصغيرة سلسلة مدهشة من الأرقام القياسية لكونها أسرع طائرة عمودية، وأسرع في معدل التسلق، والطائرة الأعلى ارتفاعاً في الطيران. فهي طائرة سريعة ومرنة الحركة، وهي الشبيه المعادل للسيارات الرياضية في عالم الطائرات المروحية. ويمكن للمؤخرة أن تحمل شخصين، غير أن بلاك ووتر عدلت هذا النموذج ليحمل اثنين من القناصة أو الرماة المزدوين بالبنادق الآلية الرشاشة التي تتدلى من إطار البوابة. وهذه الطائرات ليس لها أبواب؛ لذلك يجلس القناصة مربوطين بالأحزمة بجسم الطائرة وتكون أقدامهما مثبتة على جانبي الطائرة. وتستخدم القوات الخاصة هذه الطائرات في عمليات إقحام وإنزال المقاتلين من قوات الدلتا عن طريق القفز السريع، أو التدلي بالحبل، أو الكبل. وتستخدم بلاك ووتر هذه الطائرات في عمليات الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقديم الإسناد والدعم الناري للمتعاقدين الأمنيين العاملين معها.

ولا تقتصر مهمة قسم بلاك ووتر للطيران - وهو قسم واحد من بين أقسام الشركة الخمسة - على تقديم الدعم الجوي باستخدام الطائرات المروحية الصغيرة؛ بل يشمل أيضاً عمليات النقل والإمداد للمتعاقدين العاملين فيها في العراق وأفغانستان مستخدمين طائرة كاسا 212 ذات المحركين. ويقدم طيارو بلاك ووتر الذين يقودون الطائرات المروحية تغطية جوية لفريق الحراسة الشخصي لكل من بريمر ونيغروبونتي، أما الآن فهم يقدمون دعماً لقوافل فرق الممبة. وحين يتعرض فريق الممبة إلى كمين، تظهر الطائرات المروحية كملائكة الحراسة، محلقة في السماء كالفرسان الطائرة على ارتفاع أمتار فوق القافلة مظهرة استعراضاً باهراً للقوة لردع أي شخص يفكر في الهجوم على القافلة، وإطلاق النار عليهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

ووصف ما يقومون به «بالطيران» هو وصف غير دقيق لما يفعلونه؛ لأن هؤلاء الطيارين الذين سبق لهم أن خدموا في فرقة المظليين المئة وستين هم أسرع الطيارين طيراناً، وأخفضهم تحليفاً، وأشدهم إقداماً في العراق. ويوضح ستيف قائلًا: «ينعى علينا بعض الناس طيراننا العشوائي وتحليقتنا على ارتفاع منخفض قائلين بأن الطيران بتلك الطريقة

يمكن أن يعرضنا للسقوط والارتطام بالأرض ... إلا أن هذه هي الطريقة الآمن للطيران في هذه المنطقة. فكلما كنت منخفضاً، كان الوقت المتاح للمقاومة أقصر في اكتشافك وتصويب أسلحتهم نحوك، وكانت التغطية المتوافرة لك من المباني والأشجار أكبر. إننا نخرج في دورياتنا الجوية، وإذا شاهدنا شيئاً قد تغير مكانه، أو لم يكن موجوداً من قبل، فإننا نلاحظه ونرى إن طراً تغيير عليه أم لا، أو إن كان يحتمل أن يكون ذلك الشيء عبوة ناسفة، فإننا نطلق عليه النار».

وفي أثناء مسيرنا إلى مسكنهما المزود بمكيف هواء بارد، مررنا بلافتة تقول: «معسكر مؤخرة القرد - تبا لكم ... لدينا ما يكفي من الأصدقاء». وقد جاءت عبارة «مؤخرة القرد» حين أطلق أحد أفراد الحرس الشخصي لبول بريمر ذلك الوصف على طياري بلاك ووتر الذين يقدمون الإسناد الجوي، ووجه دلالتها يشير إلى قصر الوقت الذي جلسون فيه على مؤخراتهم قبل تحليقهم في الأجواء. تأمل ستيف هذه اللافتة وقال، «حين أتينا إلى هنا أول مرة، كان لكل شخص يسكن في المعسكر لقب ما، لذلك قلنا إننا بحاجة إلى لافتة». ذكر ذلك بنكتة سكان تكساس.

ظهرت على الحائط الطويل داخل المبنى الجاهز خريطة لبغداد ملتقطة من الأقمار الصناعية، وإلى جانبها مجموعة متنوعة من الخرائط الصغيرة والملازم. ويقضي الطيارون وقتهم إما في الطيران أو في النوم، أو في الجلوس في غرفة الاستراحة الصغيرة في انتظار نداء الانطلاق. وتملاً المكان رائحة القهوة المرة ورائحة غاز العادم الذي ينبعث من محركات الطائرات المروحية. وفي البداية، جلس الطيارون المدربون على توخي الحيطة والحذر في الجانب الأمني من العمليات التي يقومون بها، جلسوا تجاهي محمليين بي بصمت. وحين لا يجدي الصمت نفعاً، يقومون بالإجابة عن أسئلتى بلهجة مختصرة واضحة، أما الرماة فكانوا يمضغون التبغ ولم يتفوهوا بكلمة واحدة، وقد بدت عليهم ملامح عدم الارتياح.

أراني ستيف المكان الذي اخترقته رصاصة من حدائه ذي اللون الحنطي متجهة إلى الأعلى؛ إذ تعرض لإطلاق النار في قدمه قبل بضعة أيام حين كان يحلق كعادته على

ارتفاع ثلاثين متراً عن سطح الأرض فوق بغداد. ويتحدث ستيف بلهجة أهالي تكساس، وتبدو عليه رشاقة الرياضيين، ويعصب رأسه الأصلع بمنديل مزين بالرسوم. واستخدم أصبعه متتبعاً اتجاه الرصاصة من كاحله في حين كان الطيارون الآخرون يهزون رؤوسهم. وقال أحدهم: «إنه يتباهى» ثم ضحك الجميع.

تلقي ستيف الرصاصة في قدمه في أثناء قيامه برحلة عادية في يوم عادي. ومن العجيب أنه في أثناء الطلعات الجوية الأكثر خطورة في خدمته في العراق - حين كان ينقل الإمدادات والجرحى من ساحة القتال في النجف - أكمل مهامه تلك دون أي إصابة.

أصبحت الحجة التي تقول: إن المتعاقدين الأمنيين هم من المدنيين لأنهم لا يشاركون في القتال محل نظر ونقاش بعد أسابيع فقط من حادثة وقعت في 31 آذار/ مارس في الفلوجة، وبعد أن هاجمت ميليشيات الجيش المهدي التابعة لمقتدى الصدر حراساً من شركة بلاك ووتر كانوا يقومون بحراسة مبنى تابع لسلطة التحالف المؤقتة في النجف. لم ترسل القوات الأمريكية أي تعزيزات عسكرية، لذلك لم يكن أمام المتعاقدين الأمنيين من خيار سوى الرد بقوة على الهجوم والدخول في معركة حامية استمرت 24 ساعة مع المقاومة. وبعد أن أوشكت الذخيرة على النفاد من المجمع، طار ستيف من بغداد حاملاً الإمدادات إلى زملائه، وقفل راجعاً ومعه أحد الجرحى لنقله إلى المستشفى. وقد تلقى على جهوده هذه عقاباً قاسياً. وحين سألت ستيف إن كان السبب الذي أوقعه في ورطة جراء هذه المهمة هو أنه يفترض فيه أن يكون طياراً مدنياً وأنه ينبغي ألا يشارك في الأعمال القتالية، وقبل أن أنهى سؤاله، قاطعنا طيار آخر اسمه دان، وكان يحافظ على صمته حتى تلك اللحظة قائلاً: «إننا أمريكيون أولاً، متعاقدون أمريكيون ثانياً».

النجف

في خضم الصراع على القيادة السياسية الشيعية في عهد ما بعد الاحتلال، برز رجل دين ثوري إلى موقع الصدارة هو مقتدى الصدر ذو الثلاثين عاماً الذي يتمتع بنسب ممتد في القيادة الدينية. فقد كان أبوه وجدّه يحتلان مكانة مرموقة في أوساط شيعة العراق. وتقلد جدّه منصب رئيس الوزراء، وعد أبوه شهيداً بعد أن دبّر صدام حسين

عملية اغتيال له عام 1999. ولم يكن مقتدى يملك السمعة، ولا التعليم، ولا الدعم الذي حازه أبوه أو جدّه من قبله، غير أنه بعد إزالة الصور المشوهة لصدّام حسين من شوارع بغداد ووضع صور والده مكانها، أصبح واضحاً أن مقتدى كان يستغل الفراغ الحاصل لمصلحته؛ إذ عمل على حشد الدعم عن طريق استغلال السوابق التاريخية، والحمى الدينية (...).

باءت محاولات تحجيم الصدر وتحييده من الساحة العامة بالفشل؛ لأن رسالته المتطرفة المناهضة للأمريكيين كانت تلقى الاستحسان والقبول في مجتمع يشعر بالاضطهاد والمعاناة على يد المستعمر الأجنبي المعتدي. فبدأ مقتدى وجيشه الذي يتميز أفراداه بلبس القمصان السوداء بالضغط على المحتل الأجنبي، مما أضفى عنصراً من المهابة والشهرة على رجل لم يكن يعد مرجعاً دينياً حصيماً أو قائداً سياسياً لامعاً. ولكي يعزز موقعه في السلطة، قام الصدر بتنظيم المظاهرات الحاشدة، وإلقاء الخطب الرنانة، والبدء بحملة اغتالات بهدف إزالة منافسيه المعتدلين.

وفي محاولتها السيطرة على الصدر، قامت قوات التحالف والسلطات العراقية بإصدار مذكرة سرّية للقبض عليه، وبدأت القوات العراقية وقوات التحالف بإلقاء القبض على عدد من رفاقه، ووجهت إليهم تهماً بالتورط في عملية اغتيال عبد المجيد الخوئي أحد رجل الدين المنافسين للصدر في نيسان/ إبريل من عام 2003. ولمواجهة الهجوم الذي يشنه أعداؤه عليه، جهد مقتدى الصدر في استثارة أتباعه إلى حالة من الجنون المستعر.

وشهد ربيع عام 2004، مظاهرات حاشدة غاضبة على طول المدن الجنوبية وفي التجمعات السكانية الفقيرة للشيعّة في بغداد، وازدادت وتيرة الهجمات العنيفة التي يشنها جيش المهدي التابع للصدر. وكان توقيت الصدر في شن هذه الهجمات متزامناً مع تصاعد المقاومة السنّية في المثلث السنّية. وفي 28 آذار/ مارس، أصدر بريمر قراراً بإغلاق صحيفة الحوزة التابعة للصدر بحجة التحريض على الإرهاب. وفي الثالث من إبريل، ألقى القبض على أحد كبار معاوني الصدر بتهمة تورطه في اغتيال الخوئي. وقد

كان الهدف من هذين القرارين هو إضعاف الصدر، إلا أنهما في الواقع رفعاً من منزلته؛ لأنه بدا واضحاً أن الأمريكيين يستهدفونه للقضاء عليه. استغل الصدر الهجوم الموجه إليه، وخرج آلاف الشيعة إلى الشوارع تعبيراً عن دعمهم له.

أصبحت المظاهرات الاحتجاجية مشهداً شائعاً معتاداً إلى درجة أن تجمع العراقيين خارج معسكر الغولف في النجف صبيحة الرابع من نيسان/ إبريل لم يجلب سوى قليل من الانتباه في البداية. وتظهر الصور التي التقطت لهذا الحشد بضع مئات من الناس يتجمعون خارج البوابات، وارتفعت فوق رؤوسهم أعلام ذات ألوان مختلفة تمثل القبائل الشيعية. وفي حين كان أكثر المتظاهرين من ممثلي العشائر الشيعية، كانت حفنة من الأشخاص الذين ظهرُوا في خلفية الصورة يلبسون الزي الأسود، وهي العلامة المميزة لعناصر جيش المهدي.

كان معسكر الغولف في ذلك الوقت يضم مركزاً أمنياً عراقياً، وكتيبة تضم جنوداً من إسبانية، والسلفادور، وبضعة عناصر من الشرطة العسكرية الأمريكية، بالإضافة إلى فرع لسلطة التحالف المؤقتة في النجف. ويتمتع المقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة في بغداد بتحصين وحماية يتولاها متعاقدون أمريكيون يعملون بموجب قواعد اشتباك مرنة من وضع الجنرال أنثوني هنتر تشوات. وهو ضابط متقاعد من الجيش البريطاني برتبة فريق، وهو نفسه من الجنود المرتزقة الذين عملوا في الفيلق الفرنسي الأجنبي. وعلى الرغم من تلك القواعد التي تسمح للمتعاقدين أن يرد على إطلاق النار بالمثل إذا تعرض للهجوم، إلا أنه لا توجد أي قواعد قانونية أخرى توضح ما ينبغي للمتعاقدين فعله أو عدم فعله إذا وجد نفسه في وسط المعركة والاشتباك المسلح.

كانت شركة بلاك ووتر مكلفة بحماية منشآت سلطة التحالف المؤقتة في النجف بموجب العقود التي أبرمتها مع الحكومة الأمريكية، وكان لديها ثمانية متعاقدين أغلبهم جنود سابقون من قوات سيل، يتمركزون في الموقع لحماية المقر الرئيس للسلطة في النجف. ولم يكن قد مر أسبوع على مشاهدة هؤلاء المتعاقدين للكمين العنيف الذي تعرض له زملاؤهم في الفلوجة. لذلك، وحين سمعت أصوات إطلاق النار من بين صفوف

المتظاهرين خارج البوابة، كان المتعاقدون التابعون لبلاك ووتر جاهزين «للمواجهة والثأر» على حد تعبير أحدهم.

وكان لوني يونغ جندي المارينز البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، المكلف بإدارة نظام الاتصالات في المجمع قد اجتاز المتظاهرين حين وصل في ذلك الصباح إلى مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة، وكان قد قدم إلى معسكر الغولف ومعه جندي آخر من المارينز وعدد من المتعاقدين المدنيين لتحديث أجهزة الاتصالات في القاعدة. وتحوّلت المهمة السهلة التي لا يتطلب إنجازها أكثر من نصف يوم من العمل من خبير الاتصالات إلى يوم من القتال العنيف.

ويتذكر يونغ كما ذكر في روايته للحدث لصحيفة فيرجينيا بايلوت أنه سمع قبيل الظهيرة صوت طلقات كلاشنكوف. ومع أن سماع إطلاق النار من بنادق الكلاشنكوف ليست بالحدث الغريب في العراق، إلا أن سماع تبادل إطلاق النار كان يعني شيئاً ذا خطورة. فتناول يونغ عتاده وخوذته، والتقط بندقيته الرشاشة، وتوجه إلى سطح مقر سلطة التحالف، حيث انضم إلى متعاقدي بلاك ووتر الذين كانوا قد أخذوا مواقعهم وبدؤوا يردون على إطلاق النار بالمثل. استقر يونغ خلف جدار إسمنتي حيث كان يراقب بفرع نزول الرجال المسلحين من الشاحنات وهم يصوبون نيران أسلحتهم نحو المبنى الحكومي. وبحسب تدريبه العسكري، صاح يونغ تلقائياً، «بأمرك سيدي، لقد حددت هدفاً معادياً وأطلب السماح بإطلاق النار». غير أنه لم يكن على السطح جندي آخر أعلى رتبة منه. وأعاد يونغ طلبه أكثر من مرة حتى صاح أحد المتعاقدين من بلاك ووتر موعزاً بإطلاق النار. وفي تلك اللحظة، لم تجبر الظروف المتعاقدين الأمنيين على الدخول في معركة قتالية وحسب، بل جعلتهم يتبوؤون دور القيادة فوق جنود المارينز. وفيما بعد، صعدت ثلة من الشرطة العسكرية الأمريكية وجندي آخر من المارينز إلى السطح لمؤازرة المتعاقدين في القتال.

كان سطح مبنى سلطة التحالف المؤقتة على ارتفاع مناسب لإطلاق النار على المحتشدين وراء بوابة مجمع المباني، غير أن المستشفى العسكري القريب من الموقع، والبنية السكنية متعددة الطوابق، وغيرها من المباني التي كانت قيد الإنشاء، جعلت

من مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة هدفاً مكشوفاً لنيران القناصة. وفي غضون ساعات تمكن الرجال المسلحون على السطح من فرض السيطرة بنيران أسلحتهم على الجموع المحتشدة في الأسفل، في حين وجه القناصة من بلاك ووتر مناظير بنادقهم نحو المسلحين الذين كانوا يطلقون عليهم النار من نوافذ المباني المحيطة على بعد عدة مئات من الياردات. وتختلف تقديرات أعداد عناصر المقاومة الذين هاجموا المجمع، ومع ذلك، نقلت التقارير أن أعدادهم كانت بالمئات. كان يونغ يتمتع بخبرة عملية في تحديد الأهداف وإصابتها كان اكتسبها في السنوات التي أمضاها في هواية الصيد حول مدينته الصغيرة في ولاية كنتاكي. وقد أتاحت له فرصة ممارسة هذه المهارة حين شرع في اصطياد الرجال الملتحين الذين يلبسون الجلابية وهم يتجهون واحداً تلو الآخر. وفي لحظة ما في أثناء المعركة، حلقت طائرتان مروحيتان من نوع آباتشي فوق المنطقة ولكنهما لم تطلقا رصاصة واحدة، ثم غادرتا المكان دون أن تهبطا في المجمع.

ثم صرخ نقيب في الجيش طالباً الإسعاف الطبي، ولم يكن على السطح أحد من فريق الإسعاف، فسارع يونغ إليه ليتبين ما يمكنه أن يفعل، ثم نزع يونغ ما على النقيب من عتاد وقص بعناية الملابس المحيطة بالجرح حول ساعده وظهره. وحين بدأ يونغ بتضميد الجراح والإسعاف الأولي، أخذ الرصاص يتطاير فوق رؤوسهم، فصاح يونغ طالباً من المتعاقدين تأمين تغطية نارية له ريثما ينقل الجندي الجريح إلى الطابق الأرضي، حيث قام البقية بإعداد غرفة للطوارئ على عجل.

وحين عاد يونغ إلى السطح، حمل معه ما يقارب السبعين كلغم من الذخيرة وصعد بها درج الطوابق الأربعة للمبنى، وكان لديه ما يكفي من الوقت لإمداد المتعاقدين من بلاك ووتر بالعتاد، ولكنه لم يملك الوقت للعودة إلى القتال. أصيب المترجم العربي المرافق لبلاك ووتر برصاصة في وجهه، وكانت دماؤه المتدفقة من الفتحة التي أحدثتها الرصاصة في فكه بحجم الدرهم تغطي الأرض. أدخل يونغ أصبعه في مكان الجرح متمسكاً الشريان السباتي حتى وجده وسده بأصابعه ليوقف النزيف، ثم سحب المترجم بيده الأخرى من درعه نحو الدرج، وفي تلك اللحظة أصابت رصاصة كتف يونغ الأيسر فسقط على إثرها أرضاً، واستقرت الرصاصة على مسافة 3 سم من عموده الفقري، وأصابت شظية صغيرة

عينه اليسرى ذاهبة ببعض بصره. لكن يونغ الذي كان يتعرض لإطلاق نيران مكثف، وكان تحت تأثير إفراز عال من هرمون الأدرينالين، لم يتوقف لمعاينة ما به من جراح. فنهض مرة أخرى وأمسك بالترجم وسحبه خلف تمديدات مكيف الهواء وأعاد أصابعه إلى فتحة جرح الرصاصة في فك المترجم وضغط على الشريان لإيقاف النزيف، وسارع أحد أفراد الإسعاف من بلاك ووتر بالضغط المتتابع على صدر المترجم لتنشيط جهازه التنفسي. ثم حمله يونغ ونزل به على درجات الطوابق الأربعة لتقديم مزيد من الإسعاف الأولي له قبل أن يعود إلى السطح لمواصلة القتال. عاد يونغ الذي كان ينزف دمًا ويرشح عرقًا للقتال، ولم يشعر بالإصابة في ظهره إلا بعد أن صاح به أحد رفاقه قائلاً له: إن عليه أن ينزل إلى الأسفل لعلاج جراحه، وبعد أن نزل إلى الطابق الأرضي شعر يونغ بالدوار وكاد يفقد وعيه.

وحين سمع رجال الإسعاف أصوات الطائرات المروحية قالوا ليونغ: إنه بحاجة إلى الانتقال على متن إحدى تلك الطائرات إلى مستشفى في بغداد. وحين خرج يونغ إلى الساحة، نظر إلى السماء فرأى ثلاث طائرات مروحية تحوم حول المكان ولكنها كانت سوداء اللون وليست خضراء. ومع استمرار تعرضهم للقصف واقترب نفاذ ما لديهم من ذخيرة، قام متعاقدو بلاك ووتر بطلب إرسال طائراتهم المروحية الخاصة بعد أن أخفق الجيش الأمريكي في تلبية طلبهم بتقديم الدعم. طارت المروحيات الثلاث من بغداد محملة بالتعزيزات والإمداد، وبعد تفريغ حمولتها، نقلت الجرحى إلى المستشفى لتلقي العلاج اللازم.

ومع وصول إمدادات جديدة من الذخيرة، واصل المتعاقدون إطلاق النار على المقاومة. وجلس اثنان من الجنود الإسبان المسلحين بكامل تجهيزات المعركة خلف الجدار الإسمنتي المسلح وكانا يضحكان ويتبادلان النكت. وقد كانت السرية الإسبانية مكلفة بدور محدد بحفظ السلام وأعطيت أوامر بعدم الرد وإن تعرضت لإطلاق النار؛ لذلك جلس الجنود الإسبان يراقبون ما يحدث دون المشاركة فيما يجري. وكان في المكان مندوب مبيعات للسيارات المصفحة من شركة تكساس آر مور اسمه ليونيل، وطلب إلى ليونيل أن يعاون أحد القناصة المهرة واسمه كريد في تحديد أهدافه وكان مع كريد بندقية للقنص مزودة

بمنظار مقرب. شاهد كريد قناصاً من المقاومة يطلق النار من نافذة المستشفى القريب من المجمع وحاول إصابته بدقة. ومع كل رصاصة يطلقها كريد، كان ليونيل ينكمش وينظر إلى سحابة الغبار التي تبعث من اختراق الرصاصة للنافذة. «إلى اليسار قليلاً». بووم! فيجفل ليونيل ثانية مع إطلاق الرصاصة. «إلى اليمين قليلاً». بووم. «هناك المزيد من الأهداف». بووم!

صورت روايات مختلفة لشهود العيان تعرض مجمع المباني التابع لسلطة التحالف المؤقتة الذي تعرض لهجوم مكثف، إلا أن النيران المهاجمة لم تكن كثيفة إلى الحد الذي يمنع المتعاقدين من تصوير أفلامهم الخاصة بهم والتقاط الصور في أثناء المعركة. وأكثر أفلام الفيديو التي التقطت تصوّر وابلأ مستمراً من إطلاق النار سلطه المحاصرون في المجمع باتجاه المهاجمين تخله رشقات متقطعة من الرصاص القادم من الطرف الآخر. ويظهر أحد الأفلام متعاقداً أمنياً مستقلاً من بلاك ووتر اسمه «موكي سبيكولي» وهو يصيح، «يا إلهي، كأننا في نزهة لاصطياد ديوك الحبش!» ويعني بذلك وجود عدد كبير من الأهداف بطيئة الحركة البادية للعيان، وأن المتعاقدين يقتلونهم واحداً تلو الآخر دون عناء.

ويتذكر متعاقد آخر من بلاك ووتر ذلك الأحد قائلاً: «حين تعرضت بلاك ووتر للهجوم في النجف في نيسان/ إبريل، لم يكن الأمر من الأسرار الكبيرة؛ بل إنهم صوّروا الحدث في أثناء وقوعه. وقد كان كلايف يصور، وكان مع كريد كاميرا أخرى. كان الجيش في المكان، لكنهم لم يكونوا مستعدين. كان رجال بلاك ووتر متحفزين للمواجهة، حتى إن وكيل مبيعات شركة السيارات المصفحة كان يصعد الدرج وينزل مسرعاً ليحضر إمدادات الذخيرة. كنا نستخدم بنادق إم - 4، وكان هناك جندي من المارينز يستخدم بندقية رشاشة، وكان قناصة المقاومة يطلقون النار علينا من مبنى المستشفى. وقتلناهم واحداً تلو الآخر إلى أن ظهرت طائرات الآباتشي، لكن الآباتشي لم تطلق رصاصة واحدة، واكتفوا بالتحليق فوق المكان، وتبين لنا فيما بعد أنهم أمروا بعدم التدخل في المعركة، وقد تمكن عشرون أو ثلاثون شخصاً من المقاومة من الدخول إلى ساحة المجمع، لقد كان التلاحم شديداً».

ويبدو أن الجيش الأمريكي كان لديه هموم أكبر مما كان يجري في النجف ذلك اليوم؛ إذ عمت البلاد انتفاضة مسلحة دفاعاً عن مقتدى الصدر، ثم استؤنف القتال في الفلوجة.

و حين حلقت طائرات الآباتشي فوق المكان لمعاينة الموقف عن كثب، فلا بد أن الجيش اقتنع بأن قوة الحماية الموجودة في المجمع كافية لمواجهة المقاومة التي تحاصرهم. وحدث أن وصلت طائرة مروحية تابعة لسلاح البحرية إلى المكان مع بداية المساء وهاجمت بعض الأهداف، غير أنها جاءت متأخرة بعد انتهاء أعنف المعارك في ذلك اليوم.

«استمر القتال طوال النهار والليل، وحين تقرأ التقارير الصحفية يخيل إليك أن الجيش كان هو الذي يقوم بالقتال وأن رجال بلاك ووتر كانوا هناك مصادفة، لكن فريق الحراسة التابع لبلاك ووتر هم الذين كانوا في وسط الممعة؛ حتى المدنيون منهم شاركوا في القتال. ولقد كان في المجمع ثمانية أشخاص يدافعون عن مجمع سلطة التحالف المؤقتة ثمانية فقط»، كما يؤكد المتعاقد.

ويتذكر ستيف أحد طياري المروحيات التابعة لبلاك ووتر قائلاً: «لم يساعدنا الجيش في أي شيء ... فشمّرنا عن سواعدنا وأدينا الواجب». وكان ستيف قد عاد لتوه إلى المركز الرئيس للطيران في مقر بلاك ووتر في بغداد حين وصله نبأ رفاقه المتعاقدين المحاصرين في النجف وإصابة جندي من المارينز بجروح. وبدأ المتعاقدون بتحميل الطائرات المروحية الصغيرة بالإمدادات، وذهب ستيف إلى ضابط يعرفه من المارينز؛ كي يستأذنه بأخذ جندي المارينز الجريح إلى مستشفى بغداد. وعلى الرغم من موافقة القائد على عملية الإخلاء، إلا أن ستيف تعرض للمساءلة والعقاب من وزارة الخارجية الأمريكية على ما قام به، وقال ستيف بنبرة غاضبة، «أنقذت حياة الفتى، غير أن بعض الأشخاص لم يرق لهم ما فعلته، وسعّوا إلى حرمانني من مرتبي معاقبة على ما فعلت، فقلت لهم: افعلوا ما يروق لكم، احرموني من مرتبي، فلن يردعني ذلك». كان من المفروض أن يقوم ستيف بأداء دور الطيار المدني الذي يقدم الدعم لفريق الحراسة المرافق لبول بريمر، غير أنه حين علم أن زملاءه بحاجة إلى المساعدة، شعر أنه لا خيار أمامه سوى تلبية النداء حتى وإن تطلب ذلك تجاوز الأنظمة والتعليمات.

وصل قائد القوات الأمريكية في العراق الجنرال ريكاردو سانشيز يرافقه الناطق الرسمي باسم الجيش الأمريكي العميد مارك كميث إلى موقع المعركة في اليوم اللاحق للإشادة ببسالة المقاتلين الذين تصدّوا للمقاومة، وصرح كميث أمام الصحفيين بالقول،

«نحن نعلم أن مجموعة صغيرة من الجنود الأمريكيين، وجنود التحالف، والجنود الإسبان، والجنود السلفادوريين، خاضوا معركة في النجف يوم أمس من على سطح مجمع المباني التابع لسلطة التحالف المؤقتة واستمر القتال ثلاث ساعات ونصف الساعة. لقد نظرت في أعينهم ولم أستشعر وجود أزمة. إنهم يعلمون تمام العلم لماذا هم هنا. لقد خسروا ثلاثة جرحى. لقد شاهدنا الرصاص، وأغلفة الرصاص، وعبواته الفارغة على الأرض، وبصراحة شاهدنا أيضاً دماء رفاقنا التي لم تجف عن الأرض، وكانوا جميعاً في منتهى الثقة والشموخ».

لم يرد في تصريحات كميت أي ذكر عن أن المتعاقدين التابعين لبلاك ووتر هم الذين خاضوا أكثر القتال في المعركة، ولا أن الطائرات التابعة لبلاك ووتر هي التي قامت بتزويد المجموعة بالإمداد وأخلت الجرحى والمصابين، ويبدو أن الجيش كان يخشى ما كان يحدث- قوات أمن بلاك ووتر في مواجهة جيش المهدي في حين أن الجيش الأمريكي جلس يراقب الاشتباك مكتوف اليدين- بعبارة أخرى مرتزقة أمريكيين يحاربون ميليشيات مرتزقة عراقية. وفي حين كانت قواعد الاشتباك تخوّل المتعاقدين الرد على إطلاق النار دفاعاً عن أنفسهم، إلا أن واضعي تلك القواعد لم يتوقعوا أن يجد المتعاقدون أنفسهم في وضع يفرض عليهم الدخول في اقتتال يستمر عدة ساعات دون دعم خارجي. والنتيجة الثانية التي أصبحت واضحة من تلك الحادثة هي أن الجنود السابقين الذين يحملون رخصة في القتل لا يميلون إلى الفرار كما هو مطلوب منهم وبحسب ما تدربوا عليه، وما يتقاضون عليه أجرهم، وبحسب ما تفرضه عليهم قواعد الاشتباك. بل وجدناهم متحفزين لإطلاق النار مراراً وتكراراً على جموع الناس التي تحيط بهم.

وفي اليوم اللاحق، تعرضت مجموعتان أخريان من المتعاقدين الأمنيين لإطلاق النار في مدينة الكوت، وقاتلتا قتالاً شديداً وخسرتا المعركة إلى أن جرى تأمين انسحابهما.

الكوت

تقع مدينة الكوت على بعد مئة ميل إلى الجنوب من بغداد على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وهي مدينة غالبية سكانها من الشيعة، ويقطنها زهاء ثلاث مئة ألف نسمة،

وبذلك تكون مماثلة للفلوجة من حيث عدد السكان. استولت قوات المارينز على الكوت في نيسان/ إبريل من عام 2003، وُبدِّت بلطف ومحاولات رجال الدين الشيعة في المدينة نقل السلطة إليهم. ولا يكنُّ شيعة الكوت أي محبة أو احترام لصدام حسين ولا سيما بعد أن بطش بهم إثر الانتفاضة التي أعقبت حرب الخليج الأولى، ولكنهم أيضاً اتخذوا موقفاً معادياً من المحتلين الأمريكيين. ومع ذلك كانت الهجمات المسلحة التي تستهدف الأمريكيين قليلة لا تكاد تذكر. وحين نقلت قوات المارينز السلطة في المدينة إلى قوة حفظ السلام المؤلفة من جنود بولنديين وأوكرانيين في خريف عام 2003، لقيت تلك الخطوة استحساناً كبيراً وعدت نموذجاً يحتذى في تهذئة المدن في العراق.

أقامت سلطة التحالف المؤقتة مقرها في المدينة على ضفة نهر دجلة في تجمع للمباني قبالة المدينة يضم فندقاً خصص لاستخدام السلطة وحوله عدد من المباني المجاورة. وكان بول بريمر قد أسس مشروع الحكم الإقليمي، وكان يضم قسماً لجمع المعلومات الاستخبارية، كما قامت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بالتعاقد مع مؤسسة آر تي أي (مؤسسة المثلث لأبحاث التطوير)؛ لكي تساعدها في تطوير نظام للحكم المحلي في المنطقة. وكان المنسق الحكومي مارك إهرنينغتون مكلفاً بالتواصل مع الزعماء المحليين وتشكيل حلقة وصل في جهود إعادة الإعمار نيابة عن بول بريمر. وكان يرابط في المجمع بضعة جنود أوكرانيين وبولنديين، ولكن أكثرهم كانوا يقيمون في قاعدة عسكرية تبعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة.

كانت شركة كيلوغ براون أند روت مكلفة بمهمة إنشاء بعض المباني وتحصين الموقع، وقامت تلك الشركة بتكليف شركة بريطانية تدعى كنترول ريسك غروب (مجموعة السيطرة على المخاطر) بمهمة تقديم الحراسة لموظفيها. وفي 15 آذار/ مارس من عام 2004، تولت شركة تربل كانوبي مهمة تأمين الحماية لتجمع المباني التابع لسلطة التحالف المؤقتة كاملاً. وقامت الشركة بتوظيف تسعة وستين حارساً عراقياً من السكان المجاورين وزودتهم بالسلاح والعتاد وأجهزة الاتصال. وعلى الرغم من المظهر الوردي لتجمع مباني سلطة التحالف، إلا أن الأمور لم تكن على ما يرام في الكوت؛ إذ انتشرت

الملصقات والمنشورات في المدينة مدعية أن شركة آر تي أي هي منظمة تعمل لحساب الصهيونية ووكالة الاستخبارات المركزية. طالب زعماء المدينة بخروج مؤسسة آر تي أي وتوابع سلطة التحالف المؤقتة من المدينة ومعهم الجنود الأوكرانيون.

لم يكن في المدينة سوى عدد قليل ممن يعملون في وظائف، وعدد أقل ممن يملكون المال، وكانت سلطة التحالف المؤقتة تمثل رمز الاحتلال الأمريكي، وكانت نسبة لا بأس بها من السكان الشيعة قد نفذ صبرهم من الوجود الأمريكي في البلاد، ونجح قادة مثل مقتدى الصدر في تضخيم مشاعر الغضب وخيبة الأمل لدى العوام من الناس، وأصبح مشهد المتظاهرين المنظمين أمام بوابات مجمع السلطة مشهداً معتاداً. لقد كان المتظاهرون يحملون أعلاماً وصوراً لمقتدى الصدر وخلفها مجموعات من الشبان ينفخون في الأبواق ويرددون شعارات مناهضة للأمريكيين. وقد اتخذ العراقيون ولا سيما الشيعة منهم التظاهر والاحتجاج رياضة وطنية. وكانت هذه التظاهرات عموماً سلمية، وكلامية، وجرى تجاهل أكثرها.

وفي الخامس من نيسان/ إبريل، كانت التظاهرات مختلفة. وبعد وقوع عدد من الهجمات المسلحة من أتباع الصدر، كما حدث في النجف في اليوم السابق، أعلن بول بريمر أن مقتدى الصدر هو شخص خارج على القانون ومطلوب للعدالة، وأن موجات الانتفاضة والتظاهر التي نظمها في الأيام الماضية لم تعد مقبولة ولن يسمح لها بالاستمرار. وأخيراً أعلنت سلطة التحالف المؤقتة عن المذكرة السرية للقبض على الصدر التي أصدرها قاضٍ عراقي في آب/ أغسطس من عام 2003، وهو إجراء استفز أنصار الصدر ودفعهم إلى استخدام العنف. اتصل الموظفون العراقيون الذين يعملون لدى آر تي أي صبيحة ذلك اليوم لتحذير المسؤولين في المجمع بأن المظاهرات التي ستجري في ذلك اليوم ستكون أكثر خطورة من سابقتها، وأنه يحتمل شن هجوم على الموقع في تلك الليلة. وارتفع عدد المتظاهرين الذين كانوا بالمئات في الأيام السابقة إلى الألوف، وأصبح بالإمكان مشاهدة بنادق كلاشنكوف وقاذفات آر بي جي ترتفع فوق رؤوس الحشود المتظاهرة. وفي وسط المدينة، احتشدت ميليشيات المهدي وجموع الشباب الغاضب، وأغلقت مجموعة من المتظاهرين الجسر المؤدي إلى المدينة فوق نهر دجلة قرب

مجمع مباني سلطة التحالف، وطلب إلى منسق الحكومة من الجنود الأوكرانيين تأمين الموقع. وعلم إهرينغتون في الحال أن ميليشيا الصدر استولت على مكاتب الحكومة المحلية، ومحطة التلفاز، والشوارع الرئيسية في المدينة. ووصلت تقارير تقول: إن أفراد الشرطة المحلية تركوا مواقعهم أفواجاً وفرادى، والتحق بعضهم بجيش المهدي بعد أن خلعوا زيهم الرسمي، وهذه التطورات كلها منذرة بالخطر.

وحين علم جون تيرنر رئيس فريق الحراسة التابع لشركة تربل كانوبي بهذه التطورات، أمر بوضع المجمع في حالة تأهب قصوى، وسرعان ما أدرك تيرنر أن لديه مشكلات أخرى عويصة- إذ تغيب أكثر الحراس العراقيين عن عملهم صبيحة ذلك اليوم، وتخلي آخرون عن مواقعهم، وترك بعضهم أسلحتهم وأجهزة الاتصال، وتلاشت من أمام عينيه قوة الحراسة التي يرأسها، فأسرع بالاتصال بمقر الشركة لإرسال تعزيزات أمنية وحراس جدد من الحلة، وأرسلت شركة كيلوغ براون أند رووت عمالها المحليين إلى بيوتهم باستثناء ثلاثة مترجمين، وأرسلت تعليماتها إلى الآخرين بالاستعداد للحصار. أخرجت قوارير الماء والذخيرة من صناديقها، وكدست في أماكن الملاذ الأخير. وجهزوا سياراتهم رباعية الدفع للانسحاب ووضعوا فيها حقائب «الهرب» التي تحتوي على ماء وزاد يكفي يومين. وطلب إلى الموظفين لبس دروعهم وخوذاتهم الواقية من الرصاص إن كانت معهم، وأعطى كل شخص تعليمات لمواجهة أسوأ الاحتمالات وذلك بالانسحاب إلى الفندق الذي هو أكثر المباني تحصيناً في المجمع. وتحصن موظفو كيلوغ براون أند رووت الأربعة، وموظفو آرتي أي الثمانية، ومعهم أربعة من مجموعة السيطرة على المخاطر، وستة متعاقدين أمنيين من شركة تربل كانوبي، وستة من موظفي سلطة التحالف المؤقتة، وأربعة جنود بولنديين، وخمسة وثلاثون جندياً أوكرانياً في المجمع وراحوا ينتظرون بدء الهجوم.

وحين انتهى إلى مسمع بول بريمر أن أحد المكاتب التابعة لسلطته قد وضع في حالة تأهب قصوى، قام بإصدار تحذيرات إلى الذين يرسلون هذه الاستغاثات الطارئة بأن يلففوا من عباراتهم في مراسلاتهم. وردد منسق الحكومة هذا القلق حين وصف الموقف بأنه مجرد مشاجرة صغيرة مع نحو خمسين من الفتيّة المراهقين.

إلا أنه ومع بزوغ شمس النهار، استمر تدفق الأخبار السيئة: إذ أمهل جيش المهدي القوات الأوكرانية وجميع جنود التحالف والمحتلين في القاعدة العسكرية أربعاً وعشرين ساعة للانسحاب من القاعدة وإلا واجهت هجوماً عليها. وأفادت تقارير الاستخبارات أن المقاومة كانت تجهز سيارة أوبل حمراء وأخرى بيضاء لاستخدامها في تفجير المباني والمنشآت في تجمع مباني السلطة. وفي لحظة ما، انطلقت سيارة مسرعة نحو بوابة المجمع لاختبار الرد المحتمل على الهجوم بسيارة ملغمة، ثم استدارت وأعدت الكرة. وعلى الجانب الآخر من النهر، احتشدت مجموعة من الرجال بالقرب من مركز الشرطة وكانوا يحملون قاذفات آر بي جي موجهة نحو مجمع المباني، وقد أثار هذا المشهد غضب الفرق الأمنية؛ لأنهم أخبروا منسق الحكومة مارك إهرنغتون مراراً وتكراراً بأن المجمع بحاجة إلى حواجز إسمنتية مسلحة، أو جدران مزلعة لحماية الجانب المطل على النهر من نيران المقاومة. ولكن الدبلوماسي البريطاني المسؤول عن المجمع لم يقدر الخطر وظن أن الأسوار الإسمنتية القبيحة كافية.

في الساعة 2:30 بعد الظهر، طلب مكتب بريمر مرة أخرى من شركة كيلوغ براون آند روت أن تكف عن ذكر سلطة التحالف المؤقتة في مراسلاتها الإلكترونية، وبدأ الأشخاص المحاصرون في المجمع يشعرون بأن الأمريكيين الذين يقيمون بأمان في المنطقة الخضراء قد تخلوا عنهم وأسلموهم ليلاقوا مصيرهم، ولا سيما بعد أن كان ردهم على نداء الاستغاثة هو أن طلبوا إليهم التوقف عن المبالغة في وصف الموقف.

وبعد تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، جمع مسؤول فريق تربل كانوبي في المجمع جون تيرنر رجاله لإعطائهم موجزاً عن الوضع القائم. لا تبدو الأمور على ما يرام في الكوت. فقد تخلت قوات شرطة المدينة عن سيطرتها على المدينة لثلاث مئة من عناصر جيش المهدي الذين نهبوا السلاح والمعدات الموجودة في المركز الأمني. ورفضت أقرب كتيبة تابعة لقوات التحالف - جنود قوة حفظ السلام الأوكرانية والبولندية - مغادرة قاعدتها، ولم يبد لهم أنهم كانوا يتوقعون أي دعم من الجيش الأمريكي.

كانت المجموعة الصغيرة من المدنيين والمتعاقدين الأمنيين وما بقي من الجنود الأوكرانيين والبولنديين مقطوعة عن أي منفذ يمكن الهرب منه. وتحول موظفوكي بي

أر إلى جنود بعد أن وزع فريق تربل كانوبي الأمني عليهم السلاح والعتاد. ومع أن تيرنر أوضح لهم أن السلاح هو للدفاع عن النفس وحسب، إلا أنهم في واقع الأمر قد جندوا للدفاع عن القاعدة الأمريكية. واتخذ قرار بالانتقال إلى الفندق نظراً لاستحالة الدفاع عن محيط المجمع بتلك القوة الصغيرة.

ومع بداية غروب الشمس، شغلت مولدات الكهرباء لإضاءة المجمع، وبدا الجميع وكأنهم تحت الإقامة الجبرية- يأكلون الوجبات المغلفة الجاهزة في الفندق، وكانت الأسلحة معبأة، وكانوا ينتظرون إطلاق الرصاصة الأولى، ثم وقع المحذور، فبعد العاشرة مساءً هز انفجار كبير مباني المجمع مروعاً كل من كان فيه، ثم هدأت الأمور بعد ذلك، وبقيت العيون تترقب، والآذان مشدودة، إلا أنه لم يحدث شيء. فقد كان ذلك الانفجار مجرد طلقة تحذيرية.

ومع دخول الليل، تعاقب أعضاء فريق كي بي آر في رصد المكان ومراقبته، ولكن ساعات الليل مرت دون أن يحدث شيء.

وبعد انقضاء تلك الليلة التي لم تغمض فيها العيون، دخل اليوم السادس من نيسان/إبريل وحضر سبعة عشر من الموظفين المحليين في شركة كي بي آر وشركة آر تي أي إلى البوابة للعمل كالمعتاد. وكانوا يعرفون سبب لبس الموجودين في المجمع الخوذات والدروع، ولكنهم مضوا في أداء عملهم حتى أمروا بالانصراف إلى بيوتهم قبل العاشرة صباحاً. وقبيل الظهيرة، أرسلت تربل كانوبي في الحلة خمسة عشر حارساً عراقياً لتعزيز الفريق المحاصر في المجمع. ونظراً إلى كون هذه القوة مؤلفة من عراقيين سبق لهم أن خدموا في الجيش العراقي، فقد كان مؤملاً منهم أن يكونوا أقدر على مواجهة الموقف من الحرس المحليين الذين تخلوا عن مواقعهم. وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً، بدأ الموجودون في المجمع يسمعون صوت إطلاق نار آتياً من خلف النهر: فقد خرجت من القاعدة أخيراً قوة معززة من الجنود الأوكرانيين لمحاولة نزع سيطرة قوات الميليشيا عن الجسر، وازدادت وتيرة القتال، وبدأت أصوات إطلاق قذائف الآر بي جي تسمع من مكان قريب. وصوبت المقاومة بعض تلك القذائف نحو المجمع، ولكنها لم تكن دقيقة، فأخطأت الهدف وانفجرت على مسافة قريبة من المبنى.

كان على الجانب المقابل للمجمع الذي يضم المباني التابعة لسلطة التحالف المؤقتة وراء النهر منزل تستخدمه شركة هارت الأمنية، ومن سوء الحظ أن هذا المنزل كان أمام خطوط المواقع الأولى التي اتخذها جيش المهدي. وكان في المنزل، غري برانفيلد من جنوب إفريقية، وهو شرطي سابق خدم في روديسيا وجنوب إفريقية ويتمتع بخبرة واسعة. وكان قد وصل إلى المنزل فريق أمني من الشركة مكون من أربعة متعاقدين قادمين من العمارة؛ فقدم لهم غري موجزاً عما يجري. ويتذكر غري أن إطلاق قذائف الآر بي جي على مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة وقع بين وقت الظهر والثانية عشرة والنصف ظهراً مع إطلاق نار متقطع موجه نحو المجمع من موقع قريب من المنزل الذي يقيمون فيه. وبعد تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، أطلقت قذيفة آر بي جي أخرى، واكتشف غري ورفاقه أن المبنى التابع لوزارة التربية والتعليم الذي لا يفصله عن منزلها سوى بنايتين من جهة اليمين كان يستخدم قاعدة لشن تلك الهجمات، إضافة إلى سطح المبنى الواقع خلفهم، والتقاطع الواقع في الجهة اليسرى.

اتصل غري بالقاعدة العسكرية الأوكرانية طالباً منهم المساعدة في إخراج رجاله بأمان، فقال له الأوكرانيون: لم لا تتصل بمبنى سلطة التحالف المؤقتة القريبة منك؟ وأغلقوا سماعة الهاتف في وجهه، ثم اتصل غري بعد ذلك بالمقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة في بغداد فقيل له: إنهم سيضعون تقريره قيد الدراسة والمداولة ولكنهم لم يقدموا له أي مساعدة عاجلة، فجلس غري برانفيلد وفريق هارت في المقاعد الأمامية وراحوا يراقبون هجوم جيش المهدي على مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة.

كان جيش المهدي يحاول التقدم عبر الجسر نحو المجمع، غير أن القوة الأوكرانية الصغيرة حالت دون ذلك، وبدأ إحراق المباني والسيارات، وتصاعدت أعمدة الدخان الأسود في السماء. وطلب الجنود الأوكرانيون دعماً جويماً، وحلقت الطائرات المقاتلة في سماء المدينة محاولة تحديد بعض الأهداف، ولكنها لم تجد هدفاً تصيبه دون المخاطرة بإيقاع أضرار جانبية جسيمة. وفي نحو الساعة الواحدة ظهراً، تلقى مجمع دوائر سلطة التحالف المؤقتة أول ضربة مباشرة من قذائف الآر بي جي في الجانب الغربي منه، ورشق

من الجهة الشرقية بنيران البنادق، وفي داخل المبنى المحاصر، سارع الجنود الأوكرانيون والمتعاقدون الأمنيون من تربل كانوبي في أخذ مواقع مرتفعة في المجمع للدفاع عنه. وصعد جون تيرنر رئيس فريق تربل كانوبي الأمني إلى سطح الفندق لمراقبة الوضع وتوجيه إطلاق النار، واندلعت بعد ذلك معركة حامية.

وعلى الجانب الآخر من النهر، وجد الفريق الأمني التابع لشركة هارت نفسه محاصراً وسط مثلث من رصاص البنادق، والقذائف المتبادلة بين المقاومة والرجال المحاصرين في مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة، وبدأ غري برانفيلد بالتفاوض مع أعضاء ميليشيات جيش المهدي لتأمين مخرج آمن لرجالهم وإخلاء المكان، وقاسمه رجال الميليشيا بأنهم لا يريدون منه شيئاً وأن هدفهم هو مباني سلطة التحالف المؤقتة، وعرضوا عليه مرافقة مجموعته إلى خارج المدينة. صعد غري إلى الطابق العلوي لمشاورة أصحابه ومناقشة الخيارات المتاحة أمامهم. لقد كان بإمكانهم إغلاق المكان والانتظار إلى حين انتهاء العمليات القتالية معتمدين على صدق قول الميليشيا بأنهم ليسوا هدفاً لهم؛ ويمكنهم قبول عرض الميليشيا بمرافقتهم وتأمين مخرج آمن لهم من المنطقة؛ أو أن ينتظروا حتى تصل قوات التحالف وتخرجهم من هذا المكان. لم يكن المتعاقدون يعلمون إن كان العرض الذي قدمته لهم الميليشيا، بتأمين خروجهم عرضاً صادقاً أم أنه كان مجرد خدعة لإخراجهم من المكان المتحصنين فيه إلى مكان مكشوف. غير أنهم شعروا بالريبة لما رأوا أكثر من خمسين عنصراً من عناصر الميليشيا يحيطون بالمنزل. وبقرار مشترك، وبعد الأخذ في الحسبان صعوبة التنبؤ بأفعال جموع الغوغاء الغاضبة، والرد المتعاس للجنود الأوكرانيين، قرر فريق هارت الانتظار في مكانهم.

وحين نزل غري إلى الطابق السفلي لإخبار المجموعة التي تجمعت أمام المنزل بنيته المكوث مع رفاقه وعدم الخروج، وضع بقية أعضاء الفريق أسلحتهم في وضع الاستعداد وأخذوا مواقع محصنة، غير أن أعضاء الميليشيا الذين انتابهم الغضب من فشل خدعتهم في إخراج الفريق، بدؤوا بالصراخ في وجه غري، ثم سمع بعد ذلك صوت سحب الأقسام من بنادق الكلاشنكوف استعداداً لإطلاق النار، وسمع إطلاق رصاصتين، تبعتهما رشقات من إطلاق النار اخترقت باب المنزل الذي كان مفتوحاً.

هرع غري إلى داخل المنزل وحاول إغلاق الباب، في حين ركض عراقي شاهراً سلاحه نحو غري، فبادره أحد المتعاقدين الأمنيين من فريق هارت برصاصة سقطت على إثرها العراقي طريحاً على الأرض، ونادى أعضاء الفريق غري لمعرفة إن كان بخير، فسمعوه يقول: «لست بخير». فهب اثنان من المتعاقدين لمساعدته ولكنهما سرعان ما اكتشفا أنه في حالة تستعصي معها المساعدة، ومع أنه كان على قيد الحياة، إلا أنه أصيب إصابة بليغة في الجذع من رصاصة كلاشنكوف أطلقت من مسافة قريبة، وكان ينزف بقوة من عدد من الجروح في ركبته المتهدمة وأطرافه الأخرى. فكّر المتعاقدان أولاً بالخروج من المدخل غير الآمن وسحب غري معهما على السلم الحديدي إلى السطح، لكن، وقبل أن يشرعا في ذلك، ألقى أحد عناصر الميليشيا قنبلة يدوية داخل المنزل، ورمى المتعاقدان بنفسيهما خلف خزان ماء حديدي للوقاية من الانفجار، وأتت الشظايا المتطايرة من القنبلة على ما تبقى من حياة غري، وانسحب المتعاقدان إلى السطح مرغمين على ترك جثة غري ملقاة على الأرض.

تطايير الرصاص داخل المنزل مع بدء وصول المزيد من عناصر الميليشيا وتطويقهم المكان، وبعد توقف وجيز لإطلاق النار، وصل أربعة من العراقيين الذين يعملون مع شركة هارت، يشك المتعاقدون أنهم انضموا إلى الميليشيا، إلى المنزل وبدؤوا يناشدون المتعاقدين بالنزول والخروج من المنزل. نظر الفريق الأمني إليهم وإلى الحشود من حولهم وهزوا رؤوسهم قائلين، «لن نخرج من هنا».

وعلى الجانب الآخر من النهر، كان مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة لا يزال تحت تأثير هجوم مكثف، وكانت قذائف الآر بي جي تنفجر بوتيرة سريعة، وقذائف الهاون تدك جدران المباني، ورصاص البنادق يتطاير بين المباني وله أزيز. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر كان المكان محاصراً من جميع الجهات، وكانت النيران تنهال عليه من كل اتجاه مع تقدم ما يقدر بمئات العراقيين نحوهم، ثم انطلقت صفارات إنذار الغارات الجوية بين أرجاء المجمع، وانتشر خبر بأن الدعم الجوي قادم، وحلقت الطائرات المقاتلة فوق المكان ولكنها لم تطلق رصاصة واحدة.

أوشكت الذخيرة على النفاد في المجمع، وكان الموظفون المدنيون ينقلون صناديق الذخيرة ويعيدون تعبئة مخازن البنادق الرشاشة بأسرع ما يمكنهم. وطلب إلى أحد الموظفين أن يراقب الأهداف لأحد المتعاقدين في المبنى الشمالي الغربي؛ وأصاب قذيفة آر بي جي الجدار الخارجي أسفل منهم، وأصاب الرصاصات أكياس الرمال وجدران المبنى، وأطلق أحد العراقيين قذيفة آر بي جي فأصاب الجدار الخارجي قبل أن يصيبه أحد القناصة المتعاقدين برصاصة ويرديه قتيلاً. ومع تعرض المباني لنيران مكثفة ودقيقة، أصدر تيرنر أوامره لجميع الأشخاص بالانسحاب إلى الفندق، ووصلت رسالة إلكترونية إليهم من المقر الرئيس في الساعة 3:53 تقول: «نرجو إعلامكم بأننا نفعل كل ما بوسعنا، وقد قام قسم القوات المتعددة الجنسيات بإرسال طائرات مقاتلة، ولديهم بعض الأهداف المحددة لضربها، وإيقاع أضرار جانبية ليس له اعتبار في الوقت الراهن. كونوا مستعدين للاحتماء من الغارات».

لا جدوى. فقد حلقت الطائرات في سماء المنطقة، مجبرة المقاومة على الاختباء، ولكنها لم تطلق ناراً ولم تصب هدفاً. وفي الساعة 4:30 كان المتعاقدون في تعب شديد، وعرض عليهم الموظفون المدنيون أخذ أماكنهم على خط إطلاق النار الأول.

وفي الساعة 5:47 تعرضت مكاتب شركة كي بي آر ومكاتب تربل كانوبي لقصف جديد، وبدأت قذائف المدفعية تقترب أكثر فأكثر من الفندق. وانتقل الموظفون إلى الردهات الداخلية احتفاءً من القذائف التي ازدادت حدتها ودقتها.

وفي الساعة 6:00، وحين بدأ أن المقاومة كانت على وشك الاستيلاء على المكان، خيم هدوء غريب على المجمع، موجداً توقفاً غريباً في يوم طويل من العنف المتواصل، وتلقى جون تيرنر خبراً عن طريق الهاتف يفيد بأن الجنرال الأوكراني قد توصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار حتى الساعة التاسعة من صباح الغد، وأنه سيجتمع بقيادة جيش المهدي في الساعة 7:30 مساءً. غير أنه بعد وقت قصير من وصول الخبر، استؤنف إطلاق النار بين ميليشيا جيش المهدي من جهة والجنود الأوكرانيين، والمتعاقدين الأمنيين من شركة تربل كانوبي من جهة أخرى على الطرف الشمالي من المجمع، واستمر إطلاق النار الحاد مدة خمس دقائق قبل أن يعود المجمع إلى الهدوء مرة أخرى.

ظهرت طائرتان مروحيتان في السماء، وحامتا حول المنطقة عدة ساعات. واستغل الرجال المحاصرون توقف القتال لإعادة التزوّد بالذخيرة، وتحصين مواقعهم الدفاعية. وأخرجوا الوجبات الجاهزة من أغلفتها البنية، وتناولوا منها ما يسكت جوعهم، وهم يلقمون بنادقهم بمخازن جديدة من الرصاص. لم تكن معدات الجنود الأوكرانيين، ولا أسلحتهم على درجة من التطور عموماً. وكانوا غير مهيين لخوض معارك ليلية، وقام متعاقدون من كي بي آر بتزويدهم بالكشافات الضوئية، وأجهزة اللاسلكي، وغيرها من المعدات، وقدمت لهم تربل كانوبي مزيداً من الذخيرة بعد نفاذ ذخيرتهم.

وفي الساعة الثامنة، علمت المجموعة المحاصرة في المجمع أن الجنرال أوستروفوسكي من الوحدة الأوكرانية لن يتفاوض مع الميليشيا كما كان مقرراً، غير أن وقف إطلاق النار سيبقى ساري المفعول. ولكن بعد ساعة، سمع إطلاق قذائف الآر بي جي والموتر من خلف النهر، واستمر القصف خمس عشرة دقيقة، وعلم جون تيرنر أن فريقاً من القوات الخاصة يستعد للقيام بعملية إنزال في المجمع للدفاع عنه، وكان يفترض أن تقوم طائرة مروحية بانتشال المحاصرين في المبنى. واستمر التفاوض بالخلاص من هذه الأزمة عدة ساعات حتى جاء خبر جديد يقول: إن الجنرال الأوكراني قد ألغى الخطة برمتها نظراً إلى الخطورة التي تكتنف هبوط الطائرات المروحية في المجمع.

في غضون ذلك، وفي المنزل المحاصر التابع لشركة هارت، استمرت لعبة القطة والفأر مع بدء الميليشيا توجيه نيران أسلحتها إلى سطح المنزل. ومع انتصاف اليوم، قام أحد أفراد فريق هارت بالاتصال بالمقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة، وبالقاعدة الأوكرانية القريبة لإخبارهم بموت غري وبانسحابهم تحت وابل الرصاص إلى سطح المبنى حيث يقعون تحت الحصار، وناشدهم إرسال قوة لإخراجهم من المكان، وقام فريق هارت بتهيئة سطح المبنى بما يسهل عملية انتشالهم منه بالطائرة المروحية، ولكن بدا واضحاً مع بداية المساء أنه ليس هناك طائرة قادمة، وبقي فريق هارت مطوقاً من جميع الجهات، ويتعرض لنيران البنادق والرشاشات، وأحياناً لقذائف آر بي جي. ثم أرسل رجال الميليشيا أحد الأشخاص إلى سطح المنزل المجاور لحث المتعاقدين على الخروج من مخبئهم. وقالت ميليشيا المهدي: إنها تريد أخذ الرجال إلى مركزها الرئيس حيث

سترافقهم من هناك مجموعة أخرى إلى خارج المدينة. وبدا أن هذه خدعة أخرى، أو كمين لأخذهم رهائن؛ لذلك حاول فريق هارت كسب مزيد من الوقت على أمل أن يرسل الأمريكيون أو الأوكرانيون فريقاً لإخراجهم من هذه الورطة ثم دخلوا في مفاوضات بين أخذ ورد إلى ما بعد منتصف الليل إلى أن اتضح أن هذه الخدعة لن تستمر طويلاً؛ فقطع الرجال محادثاتهم مع الميليشيا، وبعد دقائق قليلة عاد القصف كما كان وألقيت على السطح قنبلتان يدويتان. ولم يستمر هذا الهجوم الشرس سوى مدة قصيرة ثم توقف حين حوّلت الميليشيا أسلحتها إلى الهدف الأكثر جاذبية على الضفة المقابلة من النهر.

اضطرت ميليشيات المهدي إلى أخذ مواقع دفاعية بعد أن بدأت طائرة إي سي-130 المزودة بالمدفعية بالتحليق في سماء المنطقة، وكان المحاصرون في المجمع ينسقون مع طاقم الطائرة لتحديد الأهداف. وقد تلقى المتعاقدون العاملون في تربل كانوبي التدريب على عمليات الإسناد الجوي حين كانوا في الخدمة العسكرية، وجرى تطوير سلسلة الاتصالات بحيث يحدد المتعاقدون الموجودون على الأرض المعلومات المتعلقة بالأهداف إلى الطائرة التي تحلق في السماء. وكانت طائرة إي سي-130 تطير على ارتفاع ثابت؛ لكي توفر مجالاً ثابتاً لمدى مدافعها الرشاشة عيار 105 ملم، ورشاشات عيار 200 ملم، وقاذفات القنابل عيار 40 ملم. وتقوم هذه الطائرات بتحديد أهدافها باستخدام منظار أمامي يعمل بالأشعة تحت الحمراء، ويعرض هذا الجهاز الأشياء التي تنبعث منها الحرارة كجسم الإنسان، والمحركات الدافئة على شكل أجسام بيضاء على شاشة تحديد الهدف.

طلب الجيش أن يفتح كل الذين يحملون السلاح في المجمع نيران أسلحتهم لاستفزاز المقاومة على الرد لغايات تحديد الأهداف، وهي حيلة قديمة لسحق العدو. فتوجه الموظفون المدنيون إلى سطح الفندق والفرحة تغمرهم بوصول المدافع الكبيرة لنجدتهم، ولكن مارك إهرينغتون أمر الجميع باحترام وقف إطلاق النار غير الموجود من الناحية الفعلية؛ فانشتوا بخيبة الأمل، غير أنه لم يكن ثمة داع لأن يفتحوا نيران أسلحتهم؛ لأن المقاومة بعد دقائق أطلقت العنان لكل ما هو بحوزتها من سلاح موجّهة ضربة قاصمة إلى الفندق. وسرعان ما كشفت تلك الخطوة عن مواقعهم خلف النهر، وكان طاقم الطائرة على اتصال مستمر مع المتعاقدين من شركة تربل كانوبي الذين تمكنوا من تحديد المزيد

من مواقع إطلاق النار بعد القصف العنيف. وانتظر طاقم الطائرة أخذ الموافقة على ضرب الأهداف، ولكن الجنرال الأوكراني رفض السماح للطائرات العسكرية بضرب الأهداف بذريعة أن مواقع العدو كانت على أسطح المنازل والمدارس والمباني المدنية. وعلى الرغم من ذلك المنع، قامت الطائرة بتدمير عدد من الأهداف في الشارع المقابل للمجمع، وموقع آخر لإطلاق مدفعية الهاون. وفي الساعة 1:45 بعد منتصف الليل، ظهرت في السماء طائرتان مروحيتان من نوع آباتشي للحلول محل طائرة إي سي - 130 وتقديم تغطية جوية متعاقبة. وكان وجود هذه الطائرات وحده كافياً لإخماد نيران المقاومة الموجهة نحو المجمع.

اكتشف تيرنر في تلك اللحظة أن المقاومة كانت تتصت على اتصالات اللاسلكي بوساطة الأجهزة التي كانت بحيازة الحرس العراقيين الذين تخلوا عن مواقعهم وانضموا إلى الميليشيا. فجمع تيرنر رجاله لإعلامهم شخصياً بالأخبار السارة التي وصلته - لقد أمرت القيادة الأوكرانية بوضع عشر ناقلات جند مدرعة مع غطاء جوي وستصل قبل الفجر لإنقاذ مجموعته المحاصرة ونقلهم إلى مكان آمن. وأذهبت بهجة الخبر الشعور بالتعب والإنهاك لدى الفريق، وراحوا يستعدون للرحيل. وفي الساعة 4:35 بعد منتصف الليل، التأمّت المجموعة، وكان كل فرد منهم يحمل حقيبتيه، وسلاحه، ومعداته المهمة، وجلسوا ينتظرون بصبر نافذ سماع أصوات الطائرات المروحية ومحركات ناقلات الجند التي تعمل بالديزل. ولكن جاء خبر يقول: إن الجنرال أوستروفسكي قد أمر بإلغاء عملية الإخلاء بسبب خطورتها واحتمالات فشلها العالية. فقرر جون تيرنر وقائد المجموعة الأوكرانية في المجمع من فورهما وضع خططهم الخاصة للإخلاء بما هو متوافر لديهم من موارد في المجمع؛ إذ يوجد لديهم عدد من السيارات رباعية الدفع المصفحة وغير المصفحة التابعة للشركات الأمنية، ويمكن التنسيق لتوفير تغطية جوية مع طائرات الآباتشي التي تحلق فوق المكان، وكان عليهما الاستعجال في وضع موعد نهائي تحدد بالساعة السادسة صباحاً للانطلاق؛ لأن جيش المهدي سيعود بعد صلاة الفجر إلى نصب مدافعه ورشاشاته، لبدء هجوم جديد على المجمع، وهو أمر من المرجح أن المجمع لن يتحملة بسبب نقص المؤن والإمدادات.

وحين سمع الرجال المتحصنون في المنزل التابع لشركة هارت بأن المجموعة الموجودة في مباني سلطة التحالف المؤقتة يعتزمون الخروج، قرروا وضع ثقتهم في اثنين من الموظفين عرضاً المساعدة، فوضعوا على رؤوسهم أغطية الرأس التي يلبسها السكان المحليون، وتسلقوا إلى سطح المبنى المجاور، ثم نزلوا في العتمة واستقلوا سيارة رباعية الدفع من نوع باجيرو، وقادوا السيارة ببطء خارج المدينة باتجاه مدينة العمارة مع بزوغ الفجر.

ومع تمام الساعة السادسة صباحاً، كانت السيارات ممتلئة، ومروحيات الآباتشي تحوم حول مبنى مجمع المباني التابعة لسلطة التحالف المؤقتة. وترأس موظفو كي بي آر داخل السيارات المصفحة التابعة لشركة سي آر جي ولكن جرى نقل بعض الأشخاص من أماكنهم بعد ظهور خلاف حول من سيحتل المقاعد المفضلة في العربات المصفحة، ومن سيركب في السيارات غير المصفحة، وفي الشاحنات العسكرية. وكانت الأفضلية في المقاعد لموظفي سلطة التحالف المؤقتة. وفي الساعة 6:15 صباحاً، كانت القافلة جاهزة للانطلاق واصطف رتل العربات والسيارات على الشارع الذي يؤدي إلى خارج المجمع. كان الأوكرانيون في مؤخرة القافلة في عربات نقل الجنود المدرعة روسية الصنع من طراز بي تي آر-60، وتتقدم القافلة العربات المصفحة التابعة للشركات الأمنية، في حين توسطت القافلة السيارات غير المصفحة والشاحنات العسكرية. جلست المجموعة بأجمعها تنتظر منسق الحكومة حتى ينتهي من مكالمته الهاتفية.

كان مارك إهرينغتون، المنسق الحكومي لسلطة التحالف المؤقتة، يتحدث إلى الجنرال أوستروفسكي مناشداً إياه إلغاء قراره الأول وأن يرسل قوة دعم إلى المكان. وكان واضحاً أنه لم يكن يرغب في التخلي عن موقعه، وأصدر إهرينغتون أمره إلى سيارة تابعة لشركة سي آر جي بإغلاق الطريق أمام القافلة. غير أن المتعاقدين الأمنيين رفضوا تنفيذ أمره. وكانت المجموعة على حافة التمرد حين بدأت تصرخ على المنسق الحكومي طالبة إليه الركوب. وأخيراً، أُنذر نقيب من قوة الحماية المنسق الحكومي بأنه سيترك هنا وحده إن لم يركب معهم. فرضخ إهرينغتون للطلب. وفي الساعة 6:20 انطلقت القافلة عبر البوابة الخلفية للمجمع، ولم تطلق رصاصة واحدة حين عبروا المدينة. وفي الساعة 7:40 صباحاً دخلت القافلة إلى قاعدة عسكرية تابعة للقوات المتعددة الجنسيات في مطار

الكوت العسكري. ونزل الرجال من السيارات شعناً، غبراً، منهكين من التعب. وأعاد موظفو شركة كي بي تي وشركة آر تي أي الأسلحة إلى المتعاقدين من شركة تربل كانوبي وعادوا مدنيين كما كانوا. لقد تخلت الولايات المتحدة عن المركز الإقليمي التابع لسلطة التحالف المؤقتة في الكوت، ولكن العاملين في المجمع خرجوا بأمان، وبعد مدة وجيزة نقل الجيش الأوكراني السيطرة على المدينة إلى ميليشيات المهدي، ثم عادت القوات الأمريكية لتتنزعا منها بعد أيام قلائل.

فيما بعد، توالى الاتهامات والإدانات. أصرّ الأوكرانيون على أن قوتهم المؤلفة من ألف وست مئة وخمسين جندياً - وهي في المرتبة الخامسة من حيث العدد بعد القوات الأمريكية، والبولندية، والإيطالية، والبريطانية - الموجودة في العراق، هي قوة لحفظ السلام وليس لخوض المعارك القتالية. ولهذا السبب كانت قدراتها محدودة في الرد على الهجمات المكثفة، ولكن بعض المتعاقدين الذين حوصروا في المجمع كانوا أكثر فظاظة، فوصف بعضهم القوة الأوكرانية «بالجبناء»؛ لأنهم «كانوا يملكون كل ما يلزمهم من الموارد والدعم لإخراجنا من هناك، ولكنهم لم يفعلوا». وأنحت سلطة التحالف المؤقتة بالمسؤولية على شركة كي بي آر على إخفاقها في وضع أكياس الرمال حول المجمع وإقامة المصدات الأسمنتية المسلحة للحماية من صواريخ سكود، وعلى قصور نظام الاتصالات فيها. كما تعرض إهرينغتون لنقد لاذع؛ لأنه عرض حياة المدنيين والمتعاقدين الأمنيين للخطر، وقررت آر تي أي تخفيض التزاماتها وأعداد موظفيها في العراق بعد الأحداث العنيفة في الكوت. إن الهجوم الذي وقع في الكوت هو الهجوم الثالث على المتعاقدين الأمنيين في ربيع ذلك العام في العراق. ومع أن سلطة التحالف المؤقتة قد قلقت من شأن الأحداث التي وقعت في النجف والكوت، وتجاهلتها وسائل الإعلام تجاهلاً كاملاً ولم تورد لها أي ذكر، إلا أن بلاك ووتر وغيرها من الفرق الأمنية الخاصة كانت الشريك الأقوى عزماً من كثير من الشركاء في الحرب على العراق. وفي الأوقات العصيبة كان تحالف الفواتير¹ هم الذين ثبتوا في أماكنهم ودافعوا عنها، في حين وقف تحالف الطرايطير² مكتوفي الأيدي يتفرون على ما يجري.

1- coalition of the billing

2- coalition of the willing